ابراهيم على أبو الخشب
الاستاذ بكلية الشريعة

النبي المعشوق
يوسف عليه السلام

الناشر
مكتبة القاهرة
الصنادقية بالأزهر بمصر

دار الطباعة المصرية الحديثة
ش محمد على . درب العنبة رقم ١

استفتاح

(لقد كان فى يوسف وإخوته ءايت للسائلين
إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن
عصبة إن أبانا لفى ضلل مبين * اقتلوا يوسف أو
اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من
بعده قوماً صالحين * قال قائل منهم لا تقتلوا
يوسف وألقوه فى غيبت الجب يلتقطه بعض
السيارة إن كنتم فعلين)

« قرآن كريم »

الإهــداء

فى قصة سابقة — من قصص الأنبياء — عن إبراهيم عليه السلام كان حديث الإهداء موجها إلى والدى الكريم الذى تعهدنى بالرعاية، وأخذنى بالتهذيب، وتولانى بالتربية، وحملنى على كثير من ألوان الأدب التى لاتجود بها الكتب، ولا يبذلها الأساتذة فى دور العلم، أو المعلمون فى معاهد الثقافة .. فنشأت أطاول رفاقى بالعزة العزيزة، والترفع المشكور، والخلق الأبى، والسلوك المحمود، حتى لا يستطيع أحد أن يزعم أننى صغرت لكبير، أو خضعت لمتكبر، أو اشتريت الزلفى إلى الرؤساء بشىء من الملق الحقير، والتواضع الذليل، والمداهنة المفضوحة، ثم ظللت أكافح برأيى، وأجاهد بلسانى، دون مبالاة بما أتعرض له من سخط وكراهية، وطرد وإبعاد، مؤمنا كل الإيمان أن الرجل لا يبكى على الحب، ولا يعول على الرضا، ولايحسب حسابا لهؤلاء الذين عميت أبصارهم عن الحق، وانصرفت قلوبهم إلى الباطل، وأنستهم المطامع والأهواء أن الله سبحانه وتعالى من ورائهم محيط يحاسبهم وإن كان يملى لهم، ويحصى عليهم ضلالهم ولايضل عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

أما هذه القصة فإننى أهديها إلى كل فتى وسيم، وكل فتاة جميلة، مكن الشيطان لها من الشر، وربط بينهما وبين السوء،

وجعلها قاب قوسين أو أدنى من الغواية الطائشة ، والرذيلة المقيتة ، والفسوق المكروه ، فاستعاذا بالله الذى ينقذ الغريق ، ويسعف الملهوف ، وينجد المتورط ، ويهدى الحائر ، وينير الطريق للمتخبط . . . . وبودى لو ينظرون إليها من هذه النواحى الخصبة بالعظات والعبر ، المليئة بالأمثال والحكم ، لأن المشاهد الأخرى المثيرة للغرائز ، تكفلت بها شاشة المسارح والخيالات التى جعلت همها قاصرا على الإغراء الدنىء ، والتوجيه المكشوف . .

وأهديها - كذلك - إلى هؤلاء الذين ضاقت عليهم الأرض بما رحبت حينما استبدت بهم القوة الظالمة ، ولم يرضها إلا أن تذيقهم من بطشهم العاتى ، وطردهم الباغى ، وعدوانهم المتسلط ، ماصيرهم أشبه بعظمة فى فم كلاب مسعورة . يلوكونها بأنيابهم ، ويمضغونها بأضراسهم . ثم يزوردونها إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا . . .

وبعد فإنى أرجو أن أكون خرجت عن جمود الجامدين الذين لايريدون أن يخوضوا فى كتاب الله وراء كونه آيات محكمات تتسامى عن عقول الباحثين ، وآراء المفكرين ، ودراسة المتأملين الذين يريدون أن يمتاحوا منها لأنفسهم ما يشاؤن من معان وأغراض ، وأخيلة وصور ، وأغذية وطعوم .

المقـدمة

حديث الحب عنـد الناس هو الحديث الذى لا يملونه مهما تقدمت بهم السن، أو تنكرت لهم الأيام ،وأحاطت بهم المحن،ونازلتهم الفتن ، ولاسيما العربى الجلف الذى كان يسكن الصحراء،وينتقل فى الأرض انتجاعاً للرزق،وطلباً للكلأ ، وله فى ذلك روايات تروى ، وأنباء تقص لاتخلو من أن يكون فيها فكاهة فى بعض الأحايين ، وأسى وأسف فى البعض الآخر وما كان الرجل هنالك على قسوته وغلظته وجبروته وعظمته ، تهتز نفسه ، وتلين أعطافه ويرق قلبه ، ويتطأ من جامحه ، إلا حين يسمع دوى هذه الكلمة يمر بأذنه فى خطاب يوجه إليه ، أو حديث يقصد به .

ولذلك جرى القرآن — حين نزل للعرب على هـذا — الأسلوب فى استمالتهم ورياضة شامسهم ، وتكررت هذه اللفظة ومشتقاتها مرات كثيرة، وتضمن هذا اللون من التصوير للعواطف وذلك النوع من الإحساس الذى يألفونه . حتى لا يكون مجافيا لفطرتهم، أو نابياً عن أذواقهم وكانت سورة يوسف عليه السلام المجال الخصيب ، والمراد الواسع ، والميدان الفسيح إلا أنها لم تكن على شاكلة من تلك الأحاديث التى عرفوها ، وتعودوا أن يصيحوا فيها إلى الآهات الحزينة ، والدموع الدامية ، والأعراض الممزقة والمجد الطائح ، والشرف المتداعى . . لأنها قصة نبى من الأنبياء خلع الله عليه من الجمال والحسن ، والجلال والروعة ، وسحر المنظر ، وبهاء الطلعة ، ونضرة الشباب ماجعله فتنة للرائى ، والشأن فيمن يكون هكذا أن يقع فى الحبائل، وأن يخر على وجهه فى ميادين الشر ، وهيهات أن يعصمه دينه أو يحميه خلقه، أو يحول بينه وبين ذلك تقاه . وقد ظل هذا النبى يغالب هذه العواصف

ويتنصر على تلك الأنواء، إلى أن تداركته عناية الله، وآزره برهانه، فلم يتدنس بمعصية، أو يتلوث بخطيئة، أو يصب تاريخه قذر الذنوب، لأنه احتمى بربه وآوى إلى ركن شديد.

وإذا كانت القصة فى الأدب العربى تصويراً لحادثة من الحوادث أو تعبيرا عن اتجاه من الاتجاهات، أو رمزاً لفلسفة من الفلسفات فى عصر من العصور، فإن هذه القصة تتحدث للأجيال كلها، وللأجيال جميعها، وترسم فى تسلسلها وتتابعها الآلام والأوجاع، والأدواء والعيوب، والأخلاق والعادات فى جميع الأزمنة والأمكنة. وكأن ذلك معنى من معانى الإعجاز فى القرآن الذى أراد الله له أن يتجدد فلا يبلى، وألا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، والذى يقرأ فى « يوسف » ما أحاط به من ظروف ومفاجآت، يرى مدى ما يقـــع فيه الآباء من التورط والخطأ حين لا يوزعون بالقسطاس المستقيم بشاشتهم وميلهم، وحسن معاملتهم لأولادهم على السواء. ويرى كيف يجنى الآباء على الأبناء إذ يجيئون بهم من أمهات مختلفة، لأن ذلك يزرع بينهم العداوة والبغضاء فتنمو قلوبهم على ما يكون بين اللدود واللدود ويرى - أيضا - أن المظلوم يكون الله سبحانه وتعالى معه مهما طال الأمد، وامتد الأجل، وأن العبد إذا حسنت صلته بمولاه فلا يضيره ما يكون بينه وبين النـاس. ولا يخلو المتأمل المعتبر من أن يؤمن أن ما يقع فيه أرباب الأسر والبيوت من غلط فاحش برفع الكلفة بينهم وبين خدمهم وتمكنهم منهم تمكن الأهـــل والأقارب، يحدث به من التحلل والتردى الخلقى ما لا تحمد عقباه وبخاصة إذا كان الرجل من هؤلاء الذين تموت شخصياتهم وتنعدم إرادتهم، ويولون المرأة من الثقة والحب ما يجعلها تنسى حدودها كزوجة، وتخرج عن طوقها كأم أولاد. ولا يعدم القارىء أن يضحك ملء شدقيه من « زليخا » لما استفاض الحديث عن فعلتها، وجرى على ألسنة أترابها فى

المدينة وقد أخذتها الحيرة واختل ميزان تقديرها للأمور ، وحكمها على الأشياء ،فلم تقف من نفسها موقف المتنصل من الجريمة،المتبرىء من الذنب ، بل وقفت موقف المبرر له ، المعترف به « قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين » وهكذا المرأة حين تتجرد لشهوتها ، وتشتغل بلذتها ، وتقطع سبحها للشيطان تستجيب لرغباته وتلبي طلبه، وتخضع لرأيه وإرادته ،ولا يكون لها بعد ذلك عقل وتفكير . . ونترك هذا التفصيل والتحليل والتعليل للقارىء بعد أن يفرغ من الموضوع إن شاء الله .

التعريف بيوسف

كان ليعقوب بن اسحق ابن ابراهيم اثنى عشر ولداً منهم يوسف عليه السلام ولم يكن ليوسف من هؤلاء الإخوة شقيق سوى « بنيامين » وبقية إخوته كانوا لأبيه فقط. .وكان يعقوب رجلا لا تتسع ثروته لأولاده اتساعاً يجعلهم فى هناءة من العيش . وبسطة من الرزق ، وكان العمل الذى يزاوله لكسب القوت ، ودفع العوز ،وسد الحاجة ،وا كتفاء مؤونة الافتقار إلى الناس هو رعى الغنم ، شأنه فى ذلك شأن الأنبياء من قبله.وكان ينتجع لهذه الحرفة البلاد المختلفة ، والبوادى المتنوعة ، غير متقيد بمكان واحد ، أومبق على أرض بعينها ومازال هكذا، مضطرب الحل والترحال ، والسفر والإقامة حتى انتهى إلى «فلسطين» وهى قليلة الزرع والثمار فى هذه الآونة،وقليلة العمران كذلك . . وربما كان هذا سر انتشار الذئاب والوحوش بها حينئذ . . ولا يعلم أحد على التحقيق ما الذى جعلها تطيب له فيركن إلى البقاء فيها مع ما بها من قلة الزرع والثمار وعدم العمران اللهم إلا أن تكون سنه وضعف قدرته والإنسان إذا ما ألحت عليه الشيخوخة ، وتقدم به

العمر ، وأصابه هزال الكبر ، فتر نشاطه ، وسكنت ثورته ، وقعدت به القوة . فلا يكون له هم فى العمل والحركة ، بمقدار ما يكون له هم فى الراحة والكسل ، والأكل والنوم ، ومثل يعقوب ليس بالحريص على الدنيا الحرص الذى يجعله مبالغاً فى الكد والدأب ، والسعى فى التحصيل ، والجمع والاختزان ، لذلك كان من السهل عليه أن يترك الزمام لأولاده على الرغم من علمه بأن تفريق كلمتهم وتشعب آرائهم ، واختلاف منازعهم ، لابد أن يحدث بينهم الأحداث ، ويثير الفتن ، ويوجد الشقاق . . . وقد ظلوا يتعاورون رعى الغنم ، ويتناوبون العناية بها ، والقيام عليها ، وكان هو فى خلال ذلك ناعم القلب ، غاض الطرف ، مقتنعاً منهم بهذا الأسلوب الذى ينهجونه ، معتقداً أنهم إن لم يكونوا مثالا طيباً فى اليوم فسيكونون فى الغد لأن كفاح الحياة يقوم المعوج ، ويكمل الناقص ويعلم الجاهل ، وما كان يدور بخلده — وهم لا يتنازعون على تركة — أن يتدخل بينهم الشيطان ، أو تدب فيهم هواجسه ، وإذا حصل شىء من هذا كله فما كان يترقب أن ينال يوسف ذلك الفتى الصغير الذى لم يشاركهم فى عمل، ولم يخالطهم إلا بمقدار ، لأنه بجوار أبيه يقوم بخدمته ، وينقطع له ، وكان فيه من الاستعداد الفطرى ما يؤهله لأن يؤثره أبوه بذلك . . دماثة خلق ، ورقة حاشية . وكرم طبع ، ولين جانب ، وفرط أدب ، وحلو حديث ، وامتثال وخضوع وعطف بالغ يحسه منه آناء الليل وأطراف النهار ، وهى أمور تحمل على الحب والمودة . إلا أن الخير يأتى بالشر والنعمة تنطوى على النقمة ، والدهر بالناس قلب ، وما كان يظن أحد أن يكون هذا الجميل الذى يسديه ولد لوالده ، وأن يكون هذا الميل الذى يميله رجل لابنه ، مثاراً لحقد الحاقدين ، وسخط الساخطين ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ثم تبتدىء المأساة تأخذ طريقها إلى النهاية المحتومة ، لينفذ القضاء ، ويتم المقدور .

الرؤيا الصادقة

إذا انقطعت النفس البشرية عن أوضار المادة ، وأدناس الحياة ، وكان سبحها كله لله ، لا تتحدث إلا عنه ، ولا تشتغل إلا به ، ولا تفكر في غيره ولا تحب سواه ، كان هو سمعها الذى به تسمع وبصرها ، الذى به تبصر ، ونورها الذى تمشى به فى الناس ، وهكذا كان الأنبياء والمرسلون ، ولذلك كان حدسهم علما ، وظنهم يقينا ، وإلهامهم وحيا ، لم ير أحدهم رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ويوسف عليه السلام لما رأى هذه الرؤيا ما كان يشك أبوه يعقوب أنها إيذان بالحرب التى يعلنها عليه إخوته لأنه يعلم أن ابنه صادق ، ويعلم ــ كذلك ــ مقدار صفاء روحه ، واستعدادها العلوى ولذلك كان جوابه له : « لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً » .

ونحن إزاء هذا الرد من يعقوب لا يسعنا إلا أن نقف حائرين لهذه الخواطر التى تترادف علينا من جراء تسليمه ليوسف مع كونه كان يحس بالغيب الذى ينتظره ،والعداوة القائمة بينهم وبينه .. ويخيل إلينا أن الحرافة كانت تقتضيه أن يحول بين يوسف وبين إخوته ، فلا يقع ما وقع ، أو يحدث ما حدث ، اللهم إلا إذا كان الرجل خالى الذهن من كل ما يجيئه به القدر ، وأن المسألة لا تعدو التخمين، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد كشف له الحجاب عن كل ما سيحصل ، كان علينا أن نؤمن أنه كان عليه أن يستسلم للقضاء الذى سينفذ .

والمفسرون جروا على أن المراد من الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر

هم إخوته وأبوه وأمه ، وساعدهم على هـــذا الفهم أن إخوته كانوا هكذا ـــ احد عشر ـــ ولا يضيرنا أن يكون المفسرون قد أصابوا فى هذا أم لم يصيبوا ، إنما الذى يضيرنا أن نمر بهذه الصورة التمثيلية الرائعة ، دون أن نفهم كيف كانت البداية تعلن عن النهاية ، وتوحى بالخاتمة . فالكواكب الأحد عشر والشمس والقمر . لم تكن فقط للعدد المجرد ، لأن أسرة يوسف كانت تتألف من هـذا العدد وكفى ، بل كانت رمزاً للمجد المنتظر والسلطان المترقب « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك ، كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم » .

ويظهر أن يوسف لم يكن الذى اختصه الله بتأويل (الرؤيا) بل كان أبوه من قبله وهى نوع من العلم (اللدنى) ولولا أن القرآن صرح بها لأنكرها الناس ، لأن فهمهم لها . وتصورهم إياها ، ليس من الأمور السهلة ، ولذلك فقد كان بعض العلماء ينكرها على ابن سيرين . ولا يزال ينكرها حتى رأى فى نومه (ملك الموت) فقال له أخبرنى متى أموت فلم يزد على أن أشار إليه بيده منفرجة الأصابع ، فلما أصبح الصباح واستيقظ من نومه وأخذته الحيرة والاضطراب ، وأخذ يضرب أخماسا لأسداس قائلا بينه وبين نفسه ليت شعرى هى خمس ساعات أم خمسة أيام . أم خمسة شهور ، أم خمس سنوات ، ثم قابل ابن سيرين فقال له أنقذنى من تلك الحيرة ، وقص عليه القصة ، فقال له إنما أشار لك بأصابعه ليقول لك الآية (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت) فاطمأن وشهد له بهذا العلم .

الحقد

حين يسيطر الحقد على المرء يجرده من معانى الإنسانية فلا يفكر تفكيراً

فيه رحمة ولايحس إحساساً فيه شفقة ، ولـكن يتحول إدراكه كله إلى الايذاء والضرر ، والإيلام والـكيد، وتزداد عنده تلك النوازع كلما تلاقت رغباته بأخرى تماثلها فى الشر، وتؤازرها على الضلال .. والعداوة التى كانت تطارد يوسف، وتنسج له خيوط الهلاك، لم تكن عداوة فرد واحد، بل عداوات أفراد اجتمعوا على كراهيتـــه ، واتفقو على بغضه ، وتلاقت ميولهم فى السخـــط عليه ، والنقمة له « إذ قالوا ليوســـف وأخـــوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضـــلال مبين » وزعموا أن يعقوب ينحرف عن الجهاد بحبه لواحد أو اثنين تاركا عصبة من الأولاد . وغاب عنهم أن ذلك الميل القلبى لا يحوله إلا الله ، ولا يستطيع أن يتحكم فيه إلا الذى يقلب الليل والنهار . . ومازالو هكذا حتى جثم الشيطان على لسان أحدهم، وأنطقه بتلك الـكلمة الآثمة، أقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لـكم وجه أبيـكم وتـكونوا من بعده قوما صالحين وهنالك وقعت منهم موقع الصاعقة ، لأنه أخوهم على كل حال ، وليس من الإنصاف لوشيجة النسب ، وآصرة القربى ، ورابطة الأخوة التى صنعها الله أن يعتدى عليها ذلك العدوان البغيض ، ويلعب بها الشيطان هذا الدور المخزى ، والقتل مظهر من مظاهر الوحشية المنكرة ، ولون من ألوان القسوة المستهجنة، فقال قائل آخر « لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين » ولما انتهوا من دراسة المـكيدة ، ورسموا لها خطتها المدبرة وقلبوها على جميع وجوهها ، واطمأنوا إلى أنها ناضجة التفـكير ، حازمة الرأى ذهبوا إلى الوالد ليطلبوا منه أن يسلمهم الفريســة ويعطيهم الطلبة ، ويساعدهم على تنفيذ ما أرادوا «قالوا ياأبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإذا له لناصحون أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وأناله لحافظون » ولم ينس يعقوب أنهم ـ جميعاً ـ أولاده ، وأن النفور الذى بينهم لا يصل إلى درجة انتهاك

الحرمات ، وقطع القرابة ، وضياع لحمة النسب والاغضاء عن تلك العقدة التي عقد الله بها بينهم، فلم يجد مايعتذر به لهم أكثر من الشفقة عليه، والخوف من عاقبة مصيره وعدم الصبر على فراقه ، والظن فى أن تمتد إليه يد بجناية (إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) وماذا عساه أن يقول لهم أكثر من هذا ووضعه منهم شائك ، وصلته بهم محرجة ، وربما كان فى تصريحه لهم بغير هذا ما يغريهم بالمبالغة فى الخصومة والكيد والعداوة والضرر والحروب أولها كلام . والأب لا يكون حديثه لأولاده بغير هذه اللباقة ، وهذا الأدب، وتلك السياسة . وقد يكون اللين فى مثل هذه الظروف أمثل والهوادة أجدر والقول الطيب أجدى . . إلا أنهم كانوا مصرين على نفاذ أمرهم وإنجاز خطتهم، لذلك لم يقابلوا اللين لا بما يشبهه « قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون » وانتهى ذلك الجدل بين الوالد وأولاده بانتصار رأيهم ، ونفاذ خطتهم ، ووصولهم إلى الغاية التى يهدفون اليها ، وذهب يوسف إلى الحتف الذى ينتظره هنالك .. وما كان أحد يقدر أن مخالب المنية تنفتح لإنسان ثم تنطبق عليه دون أن تقضمه ، وتضمه بين فكيها من غير أن تلتهمه ، وتحاول إخفائه ثم ينكشف ذلك كله عن عناية من الله سبحانه وتعالى تصونه ، وحفظ له يرعاه .

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

كاد المريب

«وجاءوا أباهم عشاء يبكون قالوا ياأبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين »

تحققت نبوءة الوالد يعقوب ، ووقع ما كان يحذره، ونزل به ما كان يخافه

ولعب الشيطان دوره بأولاده ، فأنساهم أنهم حينما يقـدمون على قتل يوسف أو الاضرار به ،إنما يجردون أنفسهم من أبسط معانى الأخوة،وأقل صفات العطف وأدنى خلال الآدمية . ومع ذلك كله فهم يطمعون فى حب أبيهم، وصفاء قلبه، ورقة إحساسه،غيرذاكرين أنهم بما فعلوا قد قضوا على البقية الباقية من وده لهم ، وحنوه عليهم . وأن الجريمة التى اقترفوها فى يوسف قد اقترفوها فى الأبوة المقدسة ، فلم يعد هنالك مطمع فى شفقة،وأن هذا البكاء أشبه بدموع التماسيح التى لم يدفع اليها حزن ، ولم يحمل عليها ثكل وأنهم ما قالوا « وما أنت بمؤمن لنـا »إلا وهم يدركون بأن لعبتهم مكشوفة وسترهم مهتوكا ، والريبة تلاحقهم ملاحقة النهار لليل ،والموج للغريق .

وإذا كان أول مايبدو من اللص مسارعته إلى اليمين ليتخلص من تهمة السرقة فإنهم قد سارعوا إلى مايعلن أن الخطيئة تحيط بهم إحاطة السوار بالمعصم ، والخاتم بالأصبع،حين ذكروا هذه الكلمة (وما أنت بمؤمن لنا) ثم لم يكتفوا فأردفوها بأخرى (ولو كنا صادقين) مصدرة بلو الافتراضية . . على أنهم لوكانوا صادقين لقالوا فى جهارة صوت ، وقوة منطق (نحن صادقون) ولكن الحديث الذى يدل على الخيانة ، ينبىء عن التلفيق ويوحى بأن صاحبه كاذب يدل عليه عدم التماسك ، وقلة الترابط ، وتنافر الجمل، ووضع الألفاظ فى غير مستقرها ثم هم لم يكتفوا بذلك كله حتى جاؤا على قميصه بدم كاذب،وكان علامة كذبه أنه تلطخ به من الخارج لا من الداخل ، وأنه لم يكن فى مكان أصابه تمزيق الأنياب ، ولاقطع الأسنان على أن فجيعة الرجل فى أهله أو ذوى قرابته من شأنها أن تصيبه بالذهول ،وتوقع به الارتباك والحيرة، وقد كان العنوان الأول على أن إخوة يوسف لم يفجعوا فيه بافتراس الذئب له ، وأكله إياه ، تضافر قواهم على جمع الأدلة التى تبرئهم من مسئولية العدوان وتبعة الجناية ، وما كان يجدى ها هنـا أن يقول يعقوب قولا يشتم منه

تكذيب، أورمى بتهمة الخيانة ، لأنهم أولاده ، ولأن الواقع لا يرتفع ؛ والقدر لاحيلة فيه. ولذلك فانه لم يزد على ما حكاه عنه الكتاب الكريم (بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل) والصبر الجميل دائماً أبداً هو ملاذ الصالحين ، ومفزع المتقين . وعصمة المؤمنين ، يلجئون اليه فلا يصيبهم زلل ، ولا يعتريهم فزع ، ولا ينالهم شك فى الله ومن أولى به من الأنبياء وهم صفوته من خلقه ، وجنده من عباده ؛ لم يهنأ لهم عيش ، ولم تطب لهم حياة (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ، ولقدفتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) . والابتلاء نوع من التربية الإلهية - يوقظ جل جلاله - بسببه الضمير الإنسانى ليحاسب صاحبه على الغفلة ويؤنبه على التقصير ، ويعاتبه على السهو ؛ ويرشده إلى مواطن ضعفه فيعمل على تقويتها ، باليقين، وترميمها بالايمان وهنالك تمضى فى سبيلها إلى الغاية المحمودة فلا تنحرف عن القصد ولا تلتوى عن السنن ، ولا تحيد عن الجادة واللغة تخص الصبر الجميل بالصبر الذى لاشكاة معه لأحد من الناس ولقد كان هكذا والد يوسف لا يشكو بثه وحزنه لغير الله أمادموعه وبكاؤه فاستجابة لداعى الطبع ، وحكم العادة وكان وجوده لريح ابنه غذاءه وسلوته وكذلك تفعل رحمة الله بخلقه إنه بهم لرؤف رحيم . .

الجب . . .

انجلت الرواية عن هذا الفصل المحزن ذاك الذى وصل بالأخوة إلى أن رموا بأخيهم فى هذا الجب المظلم ، والمكان المعتم ليموت — وحده من غير آلة ، وليلفظ أنفاسه الأخيرة على التوالى مرة فى أثر أخرى . . وهو نوع من الايلام لا يفكر فيه إلا أقسى الناس قلبا . وأغلظهم كبداً ، وأشدهم حقداً ، وأبعدهم عن معانى الرأفة والرحمة . لأن الذى

يموت دفعة واحـــدة ، يهون عليـــه الموت . ويخف وقعه عنده ، ويـكون إحساسه بالنزع لحظة ثم يستريح أما هذا الذى يبذل حياته متقطعة وينفق روحه على أقساط ، تـكون معاناته دائمة . وتعذيبه مستمراً ، ولذلك نهى الشـارع الحـكيم عن ذبح الحيوان بالسـكين الباردة والقتل بالترف . وأنت لا تتصور البئر الذى ألقى فيه إلا تصورت الوحشة والرهبة والذعر والخوف ، والقلق والاضطراب ، ولـكن إنساناً لا تسعه الدنيا لا يضيق به البئر ، ويشمع قلبه بالإيمان ، لا يجد الدجنة فى مكان . وهكذا كان يوسف صابراً محتسباً لا يفـكر إلا فى ملـكوت صـاحب الملك ، وجبروت جبار السموات والأرض ، وكان إخوته يرقبونه عن بعد ، لا ليحيطوه من التلف ويحفظوه من أسباب الهلاك ، ولـكن ليطمئنوا على أنه قد صار إلى المصير الذى ينتظرونه له ، ويودون أن يؤول إليه وفى خلال ذلك لم يفـكروا فى أن يمدوا يداً إليه بمعروف اللهم إلا « يهوذا » الذى كان يخالسهم فى الذهاب إلى هنـالك فيرمى له ببعض الزاد عسى أن يظل على الحيـاة إلى أن تتداركه رحمة الله إن كان يريد لأجله أن يمتد ، ولعمره أن يبقى . ولأنفاسه أن تتردد فى جسمه ، وهى محنة شاقة ، وابتلاء شديد . ومرحلة من أصعب المراحل وهكذا يلاقى عظماء الرجال :

وفضيلة الدينار يظهر سرها فى حكه لا فى ملاحة رقشه

ولم تطل هذه المسافة « وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال: يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون . وهنالك اطمأن أهل تلك الجريمة إلى أنهم نجحوا فيها ، ووصلوا إلى غايتهم منها ، وانتهوا إلى ما كانوا يهدفون إليه حينما قالوا : (يخل لكم وجه أبيكم وتـكونوا من بعده قوما صالحين) . وقد عاودهم الطمع الأشعبى إذ رأوا الوارد متح دلوه به ، وهو يقول يا بشرى هـــذا غلام » فأرادوا استغلال تلك الفرصة ،

وانتهاز هذه المناسبة ، فقالوا هذا غلامنا فر من وجهنا ، وأبق من حيازتنا وهرب من شعبنا ، وإن شئتم أخذه فانقدونا ثمنه « وشروه بثمن بخس » وبالطبع لم يكن الثمن إلا هكذا حين تكون السلعة بغيضة إلى مالكيها ، كريهة لدى صاحبها ، أو حين تكون مسروقة لأن السارق يتهاون فى الثمن رغبة فى المسارعة إلى التخلص من معالم الجريمة . وهؤلاء كانت حالهم مزيجا من ذلك كله ، بغض فى السلعة ، ورغبة فى التخلص منها ؛ لتخفى معالم الجريمة وتذهب آثار الحادثة . . ولو علم أولئك الذين يعيشون فى أوهام الباطل أنهم يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، لكان لهم اتجاه آخر ، أو موقف غير الذى يقفونه من أنفسهم ومن الناس، ولكن الله يطمس على بصيرتهم فلا يرون مواقع أقدامهم ، ومرامى أنظارهم ويشاء الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور أن ينفرج الجب عن فضاء واسع ، وملك كبير ، وأن يبتدىء يوسف منه تاريخا مجيداً ، وعمراً مديداً وجاها عريضاً ، وسلطانا مرهوبا ، ويكون فى هذه الناحية من قصته أشبه بأخيه موسى الذى تهدده فرعون بالذبح فألقت به أمه فى البحر فراراً من الموت بالموت، وكان علم الله قد سبق بعلو شأنه ، وتمكن عهده ، وامتداد حكمه فالتقطه عدوه ، وأكرمه خصمه ، ورباه من كان يحذره ،وزال ملكه على يديه ، وكذلك تكون عناية الله بأوليائه ، ونصرته لأحبائه ، ورعايته للأخيار من عباده « وليجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »

الجب

كانت السيارة التى عثرت بيوسف فى الجب جماعة الجند والعبيد التى يسير بها « العزيز » إذا أراد سفراً ، أو اعتزم انتقالا ، شأن الأمراء والوزراء إذا ماعن لهم ارتحال، أو طرأت لهم نجعة . . وكان هذا العزيز قائما

على عرش مصر فى هذا الوقت من قبل بعض ملوك « العمالقة » وكانت منزلته عنده عظمى ، لذلك فلم يكن واليا وكفى ، بل كان ملكا غير متوج ، يحكم بأمره ، ويتصرف بإرادته ، ويأتى الذى يأتيه فلا يحاسبه عليه أحد . ولم يكن هذا الرجل ذا أولاد ، بل كان عقيما لم ينجب ، ولذلك بنى قصور الأمانى ، وشاد صروح الآمال ، على هذه الفرصة المتاحة « وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » كما حدث فى التقاط موسى مع الفارق فى القائل إذ هو هنالك امرأة فرعون . أما هنا فالعزيز . . وما كان يعنى « زليخا » وراء هذا التبنى أن يصل إليها نفع ، أو يجىء لها غنم ، بمقدار ما كان يعنيها أن يقول القائلون إنها أنجبت ولدا ، وخلفت ابناً ، لأن المرأة تعتقد أنها بدون الولد لا قيمة لها عند الناس ، ولا تتمكن من قلب زوجها إلا حينا ثم يغدر بها ويتركها ، لذلك تحرص أن تستر ذلك النقص بالالتقاط صارفة النظر عما يعقبه من خطر اجتماعى ، وفساد عمرانى ، وجرت على هذا الدأب من القديم إلى الحديث

وكذلك مكن الله لهذا الطريد ، وسخر لهذا الشريد ، ونشأ تحفه النعمة ويرعاه الحب ، وتسهر على تدليله العناية ، فلم يكن عبداً قد استعبده المال واستذلته الملكية ، بل كان ربيب السيادة ، وحليف الترف ، وظل هكذا يترعرع بين أفياء العز ، وبين أحضان الغنى ، إلى أن تكامل شبابه ، ونضجت غريزته ، وزهى حسنه ، وفتنت صورته ، فلم يعد فى نظر « التى هو فى بيتها » مملوكا إنما هو مالك ، ولم يكن عندها غلاما إنما هو سيد وإذا أشعرته أنه خادمها فلأجل أن تخضعه لسلطان الحب وكفى . وكذلك النساء فى كل زمان ومكان لا ينظرن إلا إلى شهوتهن ، ولا يطلبن غير رغائبهن ، والشرف والمجد والعفة والأدب ، كلمات جوفاء أمام ما يبتغينه من حاجة ، وما يهفون إليه من قصد .

ومازالت تلك السيدة يتحرق بها الشوق ، ويستبد بها العشق ، وتلعب بها أعاصير الغرام ، وتهزها هواجس الوجد تمسى وتصبح ولاهم لها إلا هذا الذى بعثت إليه بقلبها فلم يعد ، وأرسلت إليه بفؤادها فجعله رهينة لديه :

ولى كبد مقروحة من يبيعنى   بها كبداً ليست بذات قروح
أباها على الناس لا يشترونها   ومن يشترى ذا علة بصحيح

وعلى الرغم من أنها وإياه فى مكان واحد يقع نظره كل يوم عليها ألف مرة ومرة إلا أنها تحس أنه لا يبادلها حبا بحب ولا تتحرك نفسه لها بشىء من المودة والعطف ، وكل مفاتنها التى تبديها ، ومحاسنها التى تعرضها وزينتها التى تظهرها ، لا تثير منه كامنا ، ولا تحرك فيه ساكنا ، ولا تبعث عنده رغبة إليها ، ولا كلفا بها فهى قريبة منه ، بعيدة عنه :

ومن العجائب والعجائب جمة   قرب الحبيب وما إليه وصول
كالعيس فى البيداء يقتلها الظمأ   والماء فوق ظهورها محمول

لذلك لم تجد بدا من أن تصارحه مصارحة سافرة . وتجاهر بضميرها مجاهرة واضحة . وتجعله أمام الأمر الواقع — كما يقولون — عسى أن يستجيب لها ، وفى جمالها الرائع . وشبابه المتوثب . وخلوتها معه ، مايغريه بالوقوع . ويشفع له بالانحدار « وغلقت الأبواب وقالت هيت لك » وما أظن الشيطان يصل من ختله وخداعه ، ولؤمه وغدره ، ورميه واصطياده بأكثر من هذا الذى تفعله امرأة تترجح فيها الشهوة إلى رجل يغلى فى عروقه دم الشباب حين تدعوه إلى نفسها فى جو بعيد عن الرقباء ، خال من الواشين ، وتقول ذلك القول الذى يذل له الكبرياء . ويذهب الخيلاء « هيت لك » ولذلك كان موضع الدهشة بعد ما همت به وهم بها أن يقول لها « معاذ الله إنه ربى » .

المحاكمة

يحدثنا القرآن الكريم أن امرأة العزيز حينما نصبت فخاخها ليوسف لم تقصر فى إحكامها حتى يفلت من الوقوع ثم لا تنجو هى من فضيحة من عساه أن يتجسس عليها ، وما أكثرما يكون ذلك من الخدم أو غيرهم من الواغلين لحاجة . أو الوافدين لمصلحة . ولم يكن هنالك حيطة بعد تغليق الأبواب . وإقامة الحراس ولكن ذلك كله لا يغنى من الله شيئا . . وما كان يدور بخلد «زليخا» بعد هذا أن الحذر لا يدفع القدر ، وأنها سوف تجد زوجها يطالعها بوجهه . ويفاجئها بحضوره ، ويباغتها بأنه يرى من أمرها ما لا تحسب له حسابا « وألفيا سيدها لدى الباب » وفى هذه الحال يحار اللسان . ويضطرب الحديث ويتلجلج المنطق ويرتبك التفكير « قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوء إلا أن يسجن أو عذاب أليم » وهكذا تصدق الكلمة « ضربنى وبكى ، وسبقنى فشكا » ولا يجرؤ على هذا التخلص إلا واحد من اثنين قادر أو فاجر . لذلك لم يكن من يوسف إلا السكوت . ولم تكن حربه هجومية بل كانت دفاعية . . ولولا أن الله أجرى على لسانه هذه الكلمة « هى راودتنى عن نفسى » وأن طفلا فى مهده كان حاضر تلك الموقعة ألهمه الله أن يقول : « إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين » لكان للتاريخ معه موقف آخر وللعزيز اتجاه غير الذى كان .

ولا يسعنا أمام هذا التحقيق الجنائى إلا أن ننظر إليه نظرة الإجلال والاحترام . والقداسة والتعظيم . فلم يكن هنالك رجال قانون . ولا قضاة يعرفون الفصل فى الخصومات ، ولم يكن هذا الذى تلفظ بهذا الأسلوب من الكلام ممن يجيدون حسم النزاع ، والحكومة بين المختلفين . وكأن الله

سبحانه وتعالى حينما أراد أن يؤيده جعل المعجزة فى ذلك ذات شقين، والبرهان عليها برهانين . لأن يوسف حينئذ . لاحول له ولا طول، ولا يظن أن يجد من ينصفه . أو يأخذ بناصره . اللهم إلا عناية الذى عنده مفاتيح الغيب .

وإلى جانب ذلك المنطق السديد الذى استمع إليه العزيز فى الدفاع عن يوسف استعرض فى ذهنه ماضيه المشرق ، وصحائفه الناصعة . وسلوكه القويم وخلقه الطاهر وحياءه الجم . وأدبه الوفير وضميره النقى . ونزاهته الواضحة ولم يشأ إلا أن يقول : « يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين » . . وهو حديث فاتر ، ومنطق بارد ، لا يقوله إلا رجل تجرد من النخوة . وخلا قلبه من حرارة الرجولة ، وكبرياء العزة وشموخ الكرامة ، وإباء المجد . وحمية الشمم . . والزوج لا يرخى للزوجة الحبل إلى هذا الحد إلى حين يحس من نفسه بالضعف أمامها . أو الذلة لها وكلا هذين لا يكون والرجل رجل والمرأة امرأة بل إنما يكون حيث تنقلب الأوضاع . أو تختلف القيم الأدبية . . وما أظن أن العلاقة تقوم بين الزوجين على أتم ما تكون العلاقات من الترابط والتعاون . والإجلال والاحترام . . والمودة والحب ، مالم يتحقق بينهما دستور القرآن « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » ولم تفسد البيوت ، ويدب إليها دبيب الشر ، ويسيطر عليها سلطان الفوضى وتقوضها معاول الهدم ، دون أن يكون الباعث على ذلك إرخاء العنان للمرأة ، وترك الحبل لها مستطيلا ممتداً ، وإعطائها من الثقة والحب ما يجعل إغضاء الرجل عنها ، ينسيه أن الشيطان لا يجد مساربه سهلة ميسورة إلا فيها هى . وبالأخص حينما يقول طائرها « خلالك الجو فبيضى واصفرى ونقرى ما شئت أن تنقرى » وهذه أمثلة يضربها الله للناس : « وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين » .

المؤتمر النسوى

فى كل زمان ومكان تجد الحديث عن المرأة ومشاكلها ومفاجآتها وخصوماتها وما يصادفها من عداوة وبغضاء إنما تعنى به بنت جنسها من لداتها وأترابها وزميلاتها وصديقاتها . وهـــذا الحادث الذى صادف امرأة العزيزة مع يوسف تطايرت به الأنباء إلى « نسـوة المدينة » قبل أن تطاير به إلى أى جهة أخرى فكان مضغتهن التى يتمضغن بها ، وفكاهتهن التى يتفكهن بها ووقوع هذه الواقعة فى محيط المرأة من الأمور العادية التى لا تشغل بالها ولا تأخذ شيئا من تفكيرها وعنايتها .. فهل الذى جعل الحديث يملأ الأصقاع والبقاع ، ويستغيض هذه الاستفاضة كلها أنه يتعلق بشأن رجل من رجالات الدولة ترمقه الأنظار وتشرئب إليه الأعناق ، وتخفق من ذكره الأفئدة . إذ هو يتصل بأهل بيته ، وينتهى إلى زوجته . . أم إن الذى جعل له تلك الطرافة والجدة أنه حديث خادم تعلقت به سـيدته « قد شغفها حبا » ومثل هـــذه النادرة جديرة بالعجب ، قمينة بأن تكون مجال التفكه . وسواء أكان هذا أو ذاك فإن الخبر لم ينته عند قول العزيز « يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك » بل ظل يتنقل من لسان إلى لسان ومن بيت إلى بيت والنساء دائما أبدا لا يعنين بسيرتهن ، ولا بتصحيح أخطائهن ، إلا فى محيطهن ، وبين قريباتهن ، لذلك فإن الدنيا حينما قامت وقعدت ، وهاجت وماجت ، وتلبدت عجاجتها ، وتغيضت مجاجتها ، لم تهتم بها « زليخا » اهتمامها بحديث نسـوة المدينة « تراودفتاها عن نفسه » . ولم يـكن اهتمام دفاع عن العرض أو قطع قالة السوء . إنما كان اهتمام الأثيم الذى يريد أن يحمل الناس على أن يلتمسوا له الاعذار ، وينتحلوا الاسباب ، ليقولوا معه إنه كان مكرها على الجريمة مسوقا رغم أنفه على الوقوع فى الهاوية « فلما سمعت بمـكرهن أرسلت اليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سـكينا وقالت أخرج عليهن فلما

رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم » وكأنما خيل إليها أنهاحينما تقنع هؤلاء ، فقد برئت ذمتها أمام الله وأمام التاريخ ، وأصبحت لاتبالى بما يقول القائلون بعـــد ويقول بعض المفسرين لهذه الآية إنها أعطت (كل واحدة منهن سكينا) وطبقا فيه بعض الفاكهة ، فذهلن عن تقطيع مافىالطبق (وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ماهذا بشرا إن هـذا إلا ملك كريم) ، وكان هذا المؤتمر النسوى هو المحكمة التى حكمت بسلامة تصرفها ، وسداد رأيها ، وحسن سلوكها وخلوصها من شائبة الخطأ ، وتهمة الغلط .. لذلك فإنها أصرت على الاستمرار فى طيشها ،والبقاء على أن تصل إلى الغاية التى تحاول أن تنتهى إليها . متوسلة بهذا الحكم ما هذا بشرا ، وهو وحـــده كفيل بأن ترتكب تحت ستاره وزرها . وتقترف فجورها . . فكيف وزوجها لم يزد على قوله لها (واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين) وإلى جانب ذلك كله فلا تزال الفتنة تطاردها (فى بيتها) وهى لم تخرج عن كونها امرأة يجـد الشيطان السبيل إليها ميسراً . وليس من الانصاف أن يقول قائل لغارق فى البحر لا تبتل بالماء ، ولالمن تشتعل النار فى ثيابه لا تحترق (قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقدراودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين)

أما يوسف وهو ذلك الشـــاب الذى يجرى فى دمه الشباب والقوة ، ويجول فى وجهه الجمال والحسن ، وتلح عليه الفتنة ، ويدفعه إلى التردى والسقوط أسباب كثيرة من الإغراء والخداع . فانه يستمع إلى ذلك فى سخرية واستهزاء (قال رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ثم بدالهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) .

فى السجن

كان السجن آخر ماهتدى إليه التفكير فى إيلام يوسف لأنه موت لما يترعرع فى النفوس من آمال ، وما يزدهر فيهـا من منى ، وإخماد لجذوة العواطف المتأججة ، وإذلال للحمية الإنسانية التى يتمتع بها الناس بعيدين عن جدرانه وأسواره . . وهو بعد هذا وهذا طمس لمعالم الحرية التى ميز الله بها الآدمين عن السوائم ، ولا يرجى لمخلوق دخله أن يتأبى عن مهانة ، أو يستعصى على رياضة ، أو يمتنع أمام مايراد به من نقيصة أو مكروه . . وكم من أبرياء تواضعت غطرستهم عنده، وخضعت عنجهيتهم له ، ولانت قيادهم من أجله ، وهكذا كان تقدير امرأة العزيز يوم أن قالت « لئن لم يفعل ما آمره ليسجنن » إلا أنه غاب عنها أن النفوس الكبيرة لا يحتويها بنيان ، ولا تحد من نشاطها أركان، ولا يقف فى سبيلها طغيان، ولا يضيق بثورتها مكان . . وأنه ربما وجد الاحرار فى السجون متنفساً يخفف عنهم مايجدونه من الضيق ، أو يعانونه من المشقة، أو يقاسونه من أغلال الحياة المحدودة. وكذلك خاب فال « زليخا » فى هـذا الذى تهددته بالسجن ، وتوعدته بالابتذال والصغار . . فإنه لم يكد يستقر به المقام حتى طاب له أن يتخذ من القوم هنالك رفاقا وأخـداناً ، وأصدقاء وإخواناً . وبخاصة أولئك الذين يشعر بظلمهم ، ويدرك معنى العدوان عليهم ، وكانوا يبادلونه ذلك الشعور مضاعف الجزاء ، وافر الإخلاص ، عظيم التقدير . . وقد انتهز هذه الفرصة المتاحة فكان يعمل جهد ما يستطيع على وعظهم ، وإرشادهم إلى الدين القويم ، والسنن السوى ، والجادة التى لا اعوجاج فيها ، مستعيناً على هذا بما أفاض عليه سبحانه من تأويل الرؤيا وتفسير الاحلام « قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة

آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » .

وصادف أن كان فى هذا السواد الذى يحيط به ، والجمهور المعجب بفرط ذكائه وفيض علمه، فتيان من حاشية الملك، أولهما كان ساقيه، والثانى خازن طعامه ، ورأى كلاهما « مناماً » أحب أن يخبره عن تأويله « قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه » . . وما كان أحد ممن حوله يظن أن حديثه عن هذه الدعوى يتجاوز الحدس والتخمين لولا أن قيض الله هذين الرجلين ـ الساقى وخازن الطعام ـ لتكون رؤياهما دليلا قاطعاً على أنه جادلا هـاذل « ياصاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ، وقال للذى ظن أنه ناج منها اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين » . . وإذا كان الشاعر يقول (إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا) (من كان يألفهم فى الموطن الخشن) فإن الساقى الذى غرق فى النعمة ، وسبح فى الرخاء ،وأتخم بالغنى ، وغص باليسار ، وناء بموفور الرزق ، نسى صاحبه فلم يخطر على ذهنه ، ليطول أجل المحنة ، ويتراخى حبل المصيبة ، ورب ضارة نافعة ، ولا سيما فى الانبياء الذين لا يزدادون بالابتلاء إلا ثباتاً ، ولا ينالون بالمصائب إلا الصبر ، وحسن المثوبة « ولقد فتنا الذى من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .

خروجه من السجن

أراد سبحانه وتعالى أن يعطى يوسف درساً ينفعه حينما قال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن

بضع سنين ، لأن الذى يؤمن بالله لايصح أن يشرك به شيئاً ، ولهذا تكون مناجاته له وحده ، وتضرعه إليه لا غير ، ورجاؤه فيه فقط ، والاستعانة به لا بسواه ، فإن خلط فى العبادة . وضل فى القصد ، وأساء فى الاتجاه ، وتنكب الطريق ، وتخبط فى السير ، واعوج فى الخطو ، كان جديراً بالغضب وحقيقاً ألا ينظره الناظرون إلا بعين الكراهية والاحتقار « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى » .

وحين تتعلق الإرادة الإلهية بأمر من الأمور نجد الأسباب غير بعيدة والبواعث جد متاحة ، والدوافع يسوق بعضها بعضاً . . ولم يكن نسيان الساقى فى بادىء الأمر عنواناً على سخط الله الذى وسعت رحمته السموات والأرض « فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً » ولكنه كان مبالغة فى الامتحان وزيادة فى الشدائد ، ليمحص إيمانه ، ويقوى عزيمته . . ولم يزل ضائعاً فى غمرة النسيان تائهاً بين التائهين فى خبر كان إلى أن أصبح الملك مضطرب الرأى غير مطمئن الحال ، يقول لحاشيته « إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون . . قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » ولم تكن إجابتهم له على هذا الوجه قاطعة لهواجسه أو قاضية على وساوسه ، أو مسكنة لبلباله ، أو مذهبة لقلقه الذى استولى عليه فلم يعد يفكر إلا أن طارئاً مقضاً سيفاجئه ، فيحول حاله إلى هم وألم وحزن وكدر ، وقد أحس « الساقى » بمقدار ما يعانيه من الخوف فقال : « أنا أنبئكم بتأويله » وهنالك ظهر على وجه الملك الهدوء والارتياح ، والسرور والاغتباط ، ومن أخذ ورد بينه وبينه عرف أنه سيجيئه بالخبر اليقين من أحد المسجونين فصرح له أن يذهب إليه ليحمل منه الجواب الصدق ، والقول الفصل ، ولما عاد « قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم

فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » أدرك الملك أن هذا حديث حصيف العقل . ناضج الفكر ، سديد الرأى ، واسع العلم ، بعيد النظر ، صائب الفهم ، تحتاج إلى سياسته الدولة ، وإلى نافذ بصره الحكومة « وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم » ولو أن غيره هذا الذى أرسل فى طلبه صاحب الأمر والنهى لأسرع فى الإجابة ، وبادر إلى الامتثال ، وتنفس الصعداء لأنه سيكون طليقاً من القيد ، بعيداً عن الأغلال ، سابحاً وقتاً ما فى محيط الحرية . . إلا أن إيمانه ببراءته ، ويقينه بنزاهته ، وغيرته على عرضه ، وحفاظه على شرفه واحتقاره لمظاهر السلطان والجاه ، تأبى عليه أن يقول كلاما ينبىء عن الضعف ، أو يبدو بشكل يدل على الخنوع والاستكانة ، أو يظهر بمظهر المتهاون فى أخلاقه وإلى جانب هذا فقد وجد الفرصة متاحة لإعلان براءته من جديد ، بعد أن شهد شاهد من أهلها « إن كان قميصه » وانتهى الأمر باعتراف النسوة بقولهن « حاشا لله ما علمنا عليه من سوء » وكذلك « قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ، ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ، وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم »

وزير المالية

وقال الملك ائتونى به استخصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين قال اجعلنى على خزائن الارض إنى حفيظ عليم وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين »

هذه صورة رائعة ، وملامح فاتنة ، لأنها تدل على عناية الله بأوليائه ،

ورعايته لاصفيائه وحفظه المخلصين من عباده ، فلا يصل اليهم أعداؤه ، ولا يكيد لهم خصومه ، ولاينال منهم ظلم الظالمين ، وبغى المتكبرين ، إلا بمقدار ما يثير فيهم قوة الإيمان، ويوقظ عندهم صلابة العقيدة ، لتتحطم على صخرتهم المحن، وتذوب من نيران عزيمتهم الاحداث .. فإن يوسف مر بهذه النكبات غير مبال لما يتعرض له من مكروه ، أو يصادفه من شدائد ، وما كان يلتجيء إذا تجهم الدهر له إلا إلى الله الذى لا يتخلى عمن يعوذ به ، ويلوذ بكنفه ، ويستجير برحمته ، ويحتمى بحصنه ، ويفزع إليه . . ولقد أحاطت به الظروف القاسية , واصطلحت عليه الرزايا الملحة ، وتجمعت حوله العوامل المختلفة تحاول إرغامه على أن يتجرد من كل شيء إلا ذل الخدمة، ورق العبودية ، وطاعة الذى أسلم قياده لسيده ، فلم يخدش ذلك كله إيمانه، ولم ينقص من خلقه ، ولم يقطع ما بينه وبين الله ، وقاوم نزوات الشيطان فى نفسه وفى بيئته التى يعيش فيها ، وسخر من الظلم الذى لحقه والعنت الذى أصابه ، والاضطهاد الذى لقيه وعزاه عن هذه الامور أن الحق معه ، وأن الله لم يسخط على سلوكه، وأنه لم ينحرف عن الجادة ، وأن الكرب فى جانب مولاه يهون . . وكأنما كان يعلم أنه يسجل بتاريخه سيرة حسنة للدنيا تستلهم منها المواعظ ، وتأخذ عنها العبر ، وتجعل منها الامثال للناس ، فهو يمليه على الزمن إملاء الذى يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه غيره، ويراقب ربه فى الخطى والسير ، ويسترشده فى القول والعمل ، ويقبس من نوره إذا دجا الليل واشتبهت المعالم . . وما كان عليه السلام ينتظر الجزاء أو يترقب المثوبة أو يأمل المكافأة ، ولكنه كان مدفوعا إلى هذا الذى كان مدفوعا إليه بالفطرة ومع ذلك فلم يشأ سبحانه أن يتركه دون أن يفسح له مجال النفع ، ويخلق له ميدان النهوض ، ويمكن له فى السلطان . . وكانت مناسبة لطيفة أن يرى الملك تلك الرؤيا ثم لا يجد من يشفى غليله ، ويطفىء لوعته سوى هذا الذى

إمتحنته الخطوب فاجتاز امتحانها بالنجاح وفاز فى ميدانها بقصب السبق.. وكان يصح أن يكتفى بعد هذا الذى أصابه من بلايا الدهر باستخلاص الملك له ثم لا يرهق نفسه بأوزار الحكم ، ولاسيما بعد أن حطمه السجن ، وطحنته الايام ، لكنه أبى إلا أن يبذل للشعب معروفه ، ويقلده منته ، ويخلع عليه من الجميل ما يطوقه به ، والعظماء لا يعيشون لملاذهم ، ولا يكرسون جهودهم لراحتهم ،ولا يقطعون ما بينهم وبين بنى جنسهم ، إنما تفنى أعمارهم ، وتذهب حياتهم فى سبيل الإنسانية بأوسع حدودها ،وأبعد معانيها . . وكذلك كان قوله للملك « اجعلنى على خزائن الارض » لا يريد به العلو فى المرتبة ، ولا التوسع فى النفوذ ، ولا الإمعان فى الجاه ، ولا الخيلاء بالسلطان ، ولا الاستغلال للمركز الذى يشغله فى الدولة . . والكفاية التى لا يقفها صاحبها للأمة يكون عليه منها الإثم « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ،وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » . . والإسلام يريد من المسلم أن يجعل نفسه كالجندى المجهول فى العمل على إقامة صروح البر والمعروف ما استطاع إلى ذلك سبيلا ! !

الحاجة إلى العدو

الحاجة فى ذاتها ذل ومهانة ، وبؤس وفقر ، وضراعة وصغار ، لا يرضاها لنفسه إلا من جمد إحساسه ، وفترت همته ، ومات ضميره ، ولا يحمل الإنسان عليها إلا الضرورة القصوى ، وحين يجد المرء أنه مضطر إليها ، يبتدىء النقص بداخله . . وما كان إخوة يوسف يظنون حين دبروا له المكيدة ، ونصبوا له شباك الشر ، ومدوا له أسباب الهلاك ، أن الله من ورائهم محيط يحفظه من الأذى ، وينجيه من الموت ويصونه من سوء ما يصنعون ، وأن الفلك سيدور دورته ، والأيام سيعتدل ريحها ، فيعود هذا الذى طردوه من

رحابهم ، وأقصوه عن مجلسهم ، حبيبا إلى قلوبهم ، يودون أن يتقربوا منه ، وأن تتصل أسبابهم بأسبابه ، وأن تعلق حبالهم به ، لأن بيده قضاء حاجتهم واشباع رغبتهم ، ودفع الضر عنهم . . وهكذا كان يبيت القدر وهم عنه غافلون، واشتدت المجاعة على الناس ، وتجهم الزمن للمواطنين . ونسلوا من كل حدب إلى أخيهم يفزعون إليه مما أصابهم ، ويطلبون العون على ما نابهم « وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون » لأنهم ما كان يدور بخلدهم أن الحياة تجرى فى عروقه ، وأن الحظوظ ستنتقل به من ذات الصدع إلى ذات الرجع ، فيصبح مقصود الرحاب ، محمى الجناب ، واختلاف النهار والليل ينسى ، وما هو بنهار عام ولا عامين ، ولا ليلة سنة ولا سنتين ولكنها أربعون خريفاً تتبدل فيهـا الأرض والسموات ، وتتحول الموجودات ، وتختلف الكائنات « ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ، فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون ، قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون » .

والذهن فى هذا الموقف يذهب المذاهب المتنوعة ، ويفكر التفكيرات المتباينة ، ولا يدرى ماهو السبب الذى حمل يوسف أن يعامل إخوته هذه المعاملة ، ويوقعهم فى حيرة من أمرهم ، مادام فى النهاية سيكون بهم رفيقاً ، وعليهم رقيقاً ، وتغلب عاطفة القربى والرحم على كل شىء ، وهو يعلم مقدار سوء ظن والده بهم فيما يزعمونه من النصح، أو يبذلونه من الإخلاص ،وما كان أغناه وأغناهم عن هذا الطلب الذى طلبه « بأخ لكم من أبيكم » اللهم إلا إذا كان يتعجل سروره بمقدم أخيه ، وإن كان ذلك قد أثار فى نفس أبيه من جديد لاعج الحزن القديم « هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » فإنه يعلم أن أباه لم يكن من هؤلاء الذين يذهلهم الحزن عن الصبر ، وتنسيهم المصيبة التجلد والإيمان بالله ،

وقد كان شعاره فى كل حال « وأفوض أمرى إلى الله » وكان إحساسه لا يفتأ يحدثه بلقائهم والاغتباط بهم « عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم » . . ولعل السر وراء ذلك كله — وسلوك الأنبياء سنة تتبع ، ودستور يقتفى — أنه أراد بهذه المحاورة كلها أن يرينا أن الأمور لا تقع موقعها من النفس ، ولا تأخذ طريقها إلى القلب ، إذا لم يجد الناس فى طلبها ويبذلوا أقصى الجهد فى الوصول إليها . . وربما كان القصد الذى كان يرمى إليه هو هذا . . وإذا كان قد أكرمهم بعدم أخذ ثمن ما جهزهم به فإنما أكرمهم هذا الإكرام ليغريهم بالرجوع « ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغى ؟ هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير ، قال لن أرسله معكم حتى تؤتونى موثقاً من الله لتأتننى به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل » وكأنما كان يعقوب يحس فى داخل نفسه أن الله سبحانه وتعالى سيجعل عاقبة أمره يسرا ، لذلك كان صابراً محتسباً ، ينتظر أن يجىء إليه الفرج القريب . . . !!

مناوشه

مناوشة أشبه بالمداعبة ، أو مداعبة أشبه بالمناوشه ، جعلها يوسف مع إخوته مسألة ذات موضوع وقد سبق « قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنى أوف الكيل وأنا خير المنزلين ، فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون » وكان عليهم أن يقلبوا هذا الطلب على وجوهه ليفهموا إن كان له مغزى يقصد إليه ، ومرمى يجعله هدفا له ، أم إنه قول أرسل على عواهنه ، وأطلق إطلاقاً من غير أن يعنى باتجاه . . « ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون »

وحديث ذلك — كما تقول كتب التفسير — أنه أعد لهم موائد الضيافة ، وصفف عليها أنواع الطعام ، وإلى جانبها ألوان الفاكهة ، وأجلسهم اثنين اثنين ، وبقى بنيامين ، تلوح على وجهه وحشة الإنفراد ، وجهامة اليتيم ، وهنالك أراد أن يسرى عنه ، ويقلل من حدة الغضب فى نفسه ، فقال له أترضى أن أكون زميلك ؟ وأن أكون كأخيك ، وكأنه أحس من بنيامين يقينه أن الكلام كلام مجاملة وأدب ، وأدرك أن الأخوة والنسب ، والرحم والقربى ، مما يزيد فى أنسه ، ويحمله على الزهو والكبرياء ، فقال : « إنى أنا أخوك » وضمه إلى صدره ليريه كيف أن قلبه كان يخفق ، وهواجسه كانت تتحرك ، وشوقه كان يتوثب ، وجوانحه كانت تغلى ، وحنينه لم ينقطع ، وأن الأحداث التى حدثت ، والأيام التى انطوت ، لم تقطع حبه له ، وقرابته منه وانتهت المائدة ، بين سمر ولهو ، وحديث يذهب إلى كثير من النواحى ، ويطوف فى غير قليل من الأجواء ، وأمر المضيف أن تزود ضيوفه بما يطلبونه من الميرة ، والطعام والدقيق . . وكان سرورهم عظيما ، إحساسهم بالارتياح والغبطة باديا على وجوههم ، يحدث عن فرح لا نظير له ، واطمئنان لا يسمح به الدهر . . لولا هذا الصخب الذى ابتدؤا يشعرون به ، والسخط الذى أبى إلا أن يلازمهم « ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون » وقد كان يحتمل وقعها عندهم ، إذا لم تكن بعد تلك الحفاوة التى لاقوها ، والكرم الذى أغدقه عليهم يوسف ، ولم تكن من رجل يقصد الناس إليه من كل حدب ، ويرجون معروفه فى هذه الأيام الحالكة السواد ، ثم ما هو هذا المسروق « صواع الملك » وأخذ المنادى يقول « ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم » وما كان همهم فى حمل بعير ولا أحمال ، إنما كان فى الشرف المضيع ، والمجد الذاهب ، والعزة التى تهدم بنيانها ، فإن من العار على أولاد يعقوب أن تلاحقهم هذه القالة ، أو تنسب إليهم تلك الفعلة . . وكانت الخطة المدبرة

أن يـكون الصواع فى رحل بنيامين ليؤخذ به ويـكون ذلك وسيلة لبقائه « قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين » فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ، وهناك سقط فى أيديهم ، ولم يسعهم إلا أن يظهروا مايـكنونه لهذا « السارق » من الـكراهية والبغضاء ، والسخط والحقد « قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » يعنون بذلك يوسف لأنه على ما يقال دخل معبدا — فى سن الطفولة — كان فيه تمثال من نحاس يتمسح الناس به ، ويتوسلون إليه ، فانتهز الفرصة لاختلاسه وإخفائه حتى لا يـكون فتنة للذين يدخلون المعبد . . . وعلى كل حال فإن هذه الـكلمة لم تـكن من الـكلمات الطيبة « فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون » . . . وضاعف من أسفهم لهذا الحادث أنهم سيعودون دون أن يـكون معهم أخوهم ، وقد عاودهم طيف تلك الـكلمة التى قالها لهم أبوهم حينما ألحوا فى طلبه ، وبالغوا فى أن يذهبوا به « هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل » وخافوا على ذلك الرجل الذى حطمته الأيام ، وقوسته السنون ، وابيضت عيناه من الحزن « قالوا يأيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إن نراك من المحسنين » قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذن لظالمون » . . . ولما أيقنوا أن محاولتهم غير مجدية ، أخذوا يفـكرون تفـكيرا عميقا فى هذا الموقف الشائك ، الذى سيقفونه من يعقوب إذا أقبلوا عليه من غير ابنه وهو الذى حذرهم من قبل « قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين ، إرجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون » وكان هذا الـكبير

هو « يهوذا » وكان على الرغم من كونه غير شقيق ليوسف يحبه ويميل إليه وهو الذى قال لإخوته حينما كانوا يتآمرون على قتله « لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب » لذلك كان قوله : « لن أبرح الأرض » على ما يهوى يوسف .

رجوعهم إلى أبيهم

أقام بنيامين ويهوذا فى ضيافة « عزيز مصر » يبادلها الفرح والسرور ، والغبطة والارتياح .. أما إخوتهم فقد مضوا إلى تنفيذ خطتهم التى اعتزموا نفاذها ، وطيتهم التى اتفقوا على إنجازها ، وما كانوا يشكون أن أباهم الذى أخذ عليهم موثقا من الله أن يصونوا أخاهم ، ويرعوا حقوق الشيخوخة الفانية ، سوف لا يقبل معاذيرهم ، ولا يصدق دعواهم ، ولا يطمئن إلى حيلتهم ، لأنه يدرى أن ابنه لا يخون ، ولا تمتد يده إلى مالا يملك ، ويعلم أن سابقتهم فى الكيد ليوسف ، والتفريط فيه ، تساعدهم على أن يعتدوا على حرمات القرابة ، وحقوق الأخوة ، وواجبات النسب ، لذلك فلم يكفهم أن يقولوا « إن ابنك سرق وماشهدنا إلا بما علمنا » بل أردفوها بالبرهان المبين ، والأدلة الشاهده ، ثم ختموها بقولهم « وإنا لصادقون » وهى أشبه بموقفهم بعد إلقاء يوسف فى الجب ، ومجيئهم بالدم الكذب على قميصه ، إذ قالوا « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » . . ولما ضاق بيعقوب الاحتمال ، وأعوزته وسائل السلوان « قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم » ومن هنا أخذ هؤلاء الأبناء ينظرون إلى ذلك الوالد نظرة جديدة ، لأنه يقول « عسى الله أن يأتينى بهم جميعا » .. وظلت كلمة « جميعـــا » تدوى فى آذانهم . وتهتف هتافها فى قلوبهم ، ودار بخبالهم كل معنى من المعانى التى تطرأ على الناس إذا اشتدت بهم النوازل ،

وثقلت عليهم الكوارث، فأصابت منهم التفكير والعقل، والوعى والإدراك إلا أنهم لم يتوهموا — مجرد وهم — أن الرجل يحدث من الملأ الأعلى أن الله سبحانه وتعالى سوف يعوض صبره خيرا : يعقب ضيقه فرجا، ويبدله من بعد عسر يسرا . . وزاد من يقينهم أن حمى الألم ، وعدم الاحتمال ، وصدمه الفراق ، جعلته يهذى هذيان المجنون « يا أسفا على يوسف » وأن عينه ابيضت من الحزن ، فإن يوسف طال عليه العهد. وأنست ذكره الأيام والفجيعة الجديدة فاجعة « بنيامين ويهوذا » ولا موضع لذكر الماضى البعيد ، اللهم إلا أن يكون ذلك من قبيل .

وقالوا أتبكى كل قبر رأيته لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت لهم إن الأسى يبعث الأسى دعونى فهذا كله قبر مالك

ولا حرج على والد مفجوع أن تفيض به الذكرى إلى هذا الحد، تعود به إلى أغوار الزمن ، متنقلة فى السنين والأيام ، حتى تصل إلى هذه النكبة التى لا تزال ماثلة بخواطره هذا المثول ، فان من المصائب مالا تستطيع القلاقل أن تعمل على إزالته ، ولا يمكن لاختلاف الليل والنهار أن يمحو معالمه ، أو يذهب من نفسه آثاره « قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين، قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون » .. ولا يعاب على المسلم الجزع إلا حين ينسيه ربه ، ويفقده إيمانه ، ويخرجه عن اتزانه ، ويجعل للشيطان طريقا إلى قلبه . . أما ما كان من يعقوب فقد كان شكاية إلى الله ، وهى كالمناجاة له ، والتضرع إليه ، والاستسلام لقضائه بالفراق بينه وبين أولاده ، وهو مؤمن برجوعهم ، مطمئن ، إلى عودتهم ، وبوادر ذلك « وأعلم من الله مالا تعلمون » وإذا كان اليأس إحدى الراحتين — كما يقولون — فإنه لم ييأس من عودتهم ليسكت ، أو يوقن بهلاكهم فينصرف عنهم ، والشأن دائما أبدا أن النفس إذا انقطع

أملها فى الشىء تنساه ، ولذلك تظهر لنا خواطره ، وتبدو أحاسيسه ، فى خطابه لأبنائه ، وهو يستحثهم أن يرجعوا إلى العزيز ليحملوا إليه رجاءه عسى أن يستجيب ، ، ويصوروا له هذا الذى يعانيه عسى أن يرق « يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

أأنت يوسف ؟

حاولوا أن يستميلوا الحاكم بكل أنواع الاستمالة فلم يفلحوا ، ثم لما أفرغوا مافى جعبتهم من سهام ، وبذلوا مافى طاقتهم من حيلة « قالوا يأيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه » والشيخوخة من حقها على الناس الإكرام ، وعلى الجامدين العطف ، وعلى غلاظ الاكباد اللين والرقة ، لانها أقوى مظاهر الضعف ، وأكثر معانى البؤس ، وأولى أمور العجز كلها بالشفقة والرحمة . . إلا أن ذلك كله لم يكن مجديا عند رجل قد ارتسم لنفسه طريقا لابد أن يسلكه ، ونهجا لابد أن يسير عليه ، وغاية لابد أن ينتهى إليها . . ولهذا فإن أباهم حينما اشتد عليهم فى أن يستخيروا الله سبحانه ليكروا أدراجهم مرة أخرى فى الرجوع إلى مصر ليتحسسوا من يوسف وأخيه جعلوا معولهم على أسلوب آخر من البيان ، ومحجة أخرى من المنطق ، ثم توسلوا بشفيع جديد ، من حقه أن يجعل حاجتهم مقضية وطلبهم مجابا ، ورجاءهم مقبولا ، وهم قوم يظهر من سيماهم أنهم لا يتصنعون الكذب ، ولا يميلون إلى التمويه ولا يجنحون إلى الإسفاف ، فإذا ادعوا دعوى لايكذبون فيها ، ولايختلقون بسببها « فلما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين » ولايشك عاقل فى أن الله يجزى المتصدقين ، ولكن هنا لك مبدأ آخر لا يصح إغفاله

ولا يصح السكوت عنه ، وذلك أن يتخير بالمعروف من يستحقه وبالبر من يستأهله، وبالجميل من يثمر فيه، وإلا أخطأ الهدف ، وأساء المرمى ،وضل القصد، والحكمة تقضى ألايساعد الإنسان إلاأهل‌الدين والمروءة ،والنجدة والادب ، والطاعة والاستقامة .

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلى مضر كوضع السيف فى موضع الندى وقد أحس أخوهم أنه أرهقهم أكثر مما يحمل به أن يرهقهم ، فقال لهم « هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون » وهى من الاخبار الدقيقة التى يحرص عليها أصحابها ، لذلك فإنهم حدثتهم نفوسهم أن بنيامين ويهوذا أخبراه بهذه الاسرار ، ولقناه هذا العلم ، والله يعلم أن الامر على خلاف ذلك ، وأن المسألة على غير ما يظنون ، وأن يوسف نفسه هو الذى عرفه هذه المعرفة ، وأخبره بهذا العلم . . . وكانت دهشة وتأمل ، ونظرة فاحصة ، وحملقة تكشف بعدها ماكان خافيا ، وبدا ماكان يحيط به‌الظلام، وتنسدل عليه الحجب « قالوا أأنك لأنت يوسف قال أنايوسف وهذاأخى قدمن علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » وهنالك ودوا لو تبتلعهم الأرض ، أو تهوى بهم الريح فى مكان سحق ، لأن جريمتهم تصورت لهم نكراء ، وغلطتهم بدت لهم شنعاء ، ووزرهم تجسم أمامهم كأنما يلاحقهم فى‌النوم والصحو ، والغفلة والانتباه، ورجوا أن يتخلصوا من تلك الورطة التى لم يكونوا يقدرون أن تحصل « قالوا تالله لقد آثرك‌الله علينا وإن كنا لخاطئين » وماكان يوسف لئيم الطبع ، ولا سفيه الرأى ، ولا بليد الإدراك « قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » وكان ذلك دليلا من جديد على أنه لا يضمر السوء ، ولا يتعنت مع من هو دونه ، وإن كان اشترط فى مقابل ذلك المن الذى منه عليهم ، والصفح الذى أضفى رداءه فوق رؤوسهم ، أن يحملوا إلى أبيه نبأ حياته ،

وبشرى وجوده «إذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً وأتونى بأهلكم أجمعين » فاستجابوا للطلب . .

فرحة اللقـاء

من اللحظات النادرة ، والأوقات القليلة ، والفرص التى يبخل الدهر بها على الناس ، لحظات السرور الحلو ، والابتهاج المرموق ، والاغتباط اللذيذ ، والانشراح الذى لا يتكرر إلا بعد الفينة والفينة ؛ بسبب لقاء يكون بين حبيبين مخلصين ، وصديقين وفيين ، فرقت بينهما الأيام فرقة لم يكن فيها أمل للقاء ، ولا رجاء فى اقتراب ، اشتد فيها الحزن ، وزادت قسوة الزمن ، ولوعة الاغتراب . . وقد ودع يوسف إخوته بعد أن زودهم بالطعام ، وأثقل ركائبهم بالهدايا ، وحين عرفهم بنفسه ، وكشف لهم ما كان مستوراً من أمره ، وأفهمهم أن إرادة الله فوق ما يريدون ، ودون ما يفعلون تقف لكيد الكائدين ، ومكر الماكرين ، فلا ينفذ إلا ما كان على وفقها ومتمشيا مع رغبتها . . وقال لهم حينما شعر بسفهم على ما اقترفوه ، وندمهم على ما ارتكبوه « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم » غير أنه رجاهم رجاوة المخلص ، وطلب إليهم طلب المتلهف ؛ وأظهر لهم من تمنيه أن يجمع الله شمله بوالديه ، كما جمع شمله بهم ، وأقر عينيه بتلاقيهم .. وكان هذا آخر ما فى كنانته من سهام أراد به أن يفهمهم أنه سحب على ماضيه معهم ، وسابقتهم له ذيول النسيان ، ليطمئنوا إلى عفوه عنهم بعد المقدرة « إذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا وائتونى بأهلكم أجمعين » وكأنما كان هناك تلاق فى الخواطر بين الولد والوالد ، وتجاوب أحاسيس بين الابن وأبيه ، وحديث تنقله النفس إلى النفس بواسطة الموجات الهوائية مع بعد الديار ، وشطوط الأقطار . . . ففى الوقت الذى كانت تدوى فى مجلس يوسف

« اذهبوا بقميصي هذا » وكانت تتحرك ركاب العير بالمسافرين من مصر إلى أرض كنعان كان يعقوب يقول لمن بحضرته : « إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون » ولعله أيضا كان من تجاوب الإلهامات ، أو من إخبار الوحى « يأت بصيراً » مع زوال الغشاوة التى أصابت عين الرجل من شدة البكاء ، وكثرة الحزن ، على فقد ابنه . وذهاب فلذة كبده ، والتفريق بينه وبين أعز الناس عنده .

ولا يستطيع الطب أن يتحدث عن الصلة بين ريح يوسف ، أو عرف قميصه ، وبين رجوع بصر والده المفجوع بعد أن كان مفقوداً . . وإن كان علم النفس الجنائى — الآن — استطاع أن يستدل بآثار الأقدام ، ورائحة الأشياء على أصحابها استدلالا لا يزال محل شك . . وعلى كل حال فإن المسألة من قبيل الخوارق التى يظهر الله بها فضل أوليائه من عباده الذين اصطفاهم وطهرهم .

وخف وقار ذلك الشيخ الكبير « يعقوب » وبدا السرور على وجهه ، والطرب فى حديثه، والنشوة فى حركاته وسكونه ، وظهر كأنه طفل قد لعب به اللهو ، فأخذ يقول لمن حوله « ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون » وبين هذه الجلبة القائمة ، والضجيج الدائب ، من حديث الناس عن يوسف الذى فقده أبوه منذ أزمان بعيدة ، ثم ردته الأقدار أحسن ما يتمنى إنسان لابنه . . يصيب إخوته هذا الذهول الذى أعتراهم فى مجلس العزيز إذ قال لهم « أنا يوسف وهـذا أخى قد من الله علينا » وتضيق الدنيا فى وجوههم ، وتظلم فى أعينهم ، وتحيط بهم خطيئاتهم من كل جانب ، فلا يسعهم — بعد توبيخ ضميرهم لهم ، وندمهم على ما سلف من ذنوبهم — إلا أن يتقدموا فى ذلة المقترف ، وضراعة الآثم إلى أبيهم قائلين له « استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين » ويعقوب والد تأخذه شفقة الآباء ، وحنان الأهل ، وعطف

ذوى القربى . . وهو إلى جانب ذلك شيخ كبير لا يعرف القسوة ، ولا يستسيغ الغلظة ، ولا يلذ له طعم الانتقام ، ولا يحب بحال من الاحوال إلا أن يكون سمح النفس ، رضى القلب ، رقيق الحس ، ينزع طبعه إلى الرحمة ، ولاسيما مع هؤلاء الذين تجمعهم به الوشائج ،وتربطه وإياهم الصلات « قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم » . . ومن طلبهم منه، وإجابته لهم ، يدرك الفطن اللبيب نوعا من الادب يدق على الالباب ، ويخفى على الفطن ، ويغيب عن العقول ، فانهم يقولون « استغفر لنا ذنوبنا » أما هو فانه يقول سوف أستغفر لكم ربى » إشارة إلى أنه هو بحكم عاطفته لا يكن لهم بغضا ، ولا يذكر إساءة . . وأن المسألة أصبحت بينهم وبين الله فقط « يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » . وانتهى موقف الأبناء مع أبيهم على الصفو التام ، والصفح الجميل ، وذهب الماضى إلى غير رجعة ، ولم يعد هنالك سوى ترقب المستقبل الباسم ، والغد السعيد ، فى جوار هذا الملك الذى وصل اليه واحدمنهم، والنعمة التى أتاحها الله إلى رجل من بينهم .. وتحرك الركاب بهم جميعا إلى محط أنظارهم ، ومطمح آمالهم ، وموئل رجائهم ، ومناط أمانيهم، تحدوهم أنغام روحيه ،وأصوات علويه ، وهتافات يتردد صداها فى أنحاء النفس لذيذة الإيقاع ، « فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ، وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا قال ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل ، قد جعلها ربى حقا ، وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن ، وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » .

وفى هذا اللقاء لفتة شعرية جميلة، وهزة نفسية لطيفة، يرى فيها المتأمل موكبا من مواكب الأرواح ، لا من جماعة الأشباح ، قد خلعت عنها أوضار

الحقد ، وتجردت للقلب — وحده — بعيدا عن سعار المادة ، وحطام الدنيا . . ويظهر ذلك فى موضعين اثنين . أولهما « نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى » فإنه يحق تتمثل فيه وشيجة الأخوة الكريمة ، والقرابة العزيزة ، يرضى بها الصلة القائمة من ناحية ، ويرضى حنان أبيه من ناحية أخرى . . وثانيهما رفعه أبويه على العرش ، لأن الإنسان لا يتم سروره ، ولا يكمل اغتباطه ، إلا إذا شاركه فيه أهله ، وبخاصة والديه الذين هما أخلص الناس له ، وأحبهم عنده ، وأشدهم ميلا له .. ولم يكن أحد يحس إحساسهما فى هذه اللحظة الرهيبة ، وبدا فى سجودهما لله على ما أسدى إليهما فى يوسف الذى جعله على خزائن الارض ، وجعل بيديه هذه المقاليد ، وتحت إمرته وسلطانه هذا الملك الفسيح ، يقصده العافون ، ويرجوه المعوزون ، ويتجه إليه بالامل الحلو المؤملون ، من الآفاق البعيدة ، والانحاء المترامية ، وهى نعمة تستوجب الشكر لله . .

الشكر لله

لم يكن هنالك شىء من الاشياء يستطيع أن يجزى تلك النعم العظمى التى أنعم سبحانه بها على يوسف ، مهما بالغ فى أدائه ، وأخلص فى تقديمه ، لانها تجل عن الجزاء ، وتكبر عن الثمن الذى يقابلها ، والعوض الذى يصلح أن يكون كفيا لها من إلقائه فى الجب ، والتقاط السيارة له ، وشرائه بتلك الدراهم المعدودة ، إلى أن قال للملك «اجعلنى على خزائن الارض » وما أردف ذلك من سيادته على مصر ، وتحكمه فى شئون أهلها وغيرهم ، بعد أن اشتدت بهم المجاعة ، وتكشرت الحوادث ، وتجهمت الأيام ، وساءت الحال إلى أبعد مما يتصوره العقل البشرى ، ويحيط بفهمه الذهن الإنسانى ، والذى يستعرض هذه القلاقل كلها ، ويتتبع تلك المحن ، وينظر إلى أى مدى كان

نصر الله له ، ولطفه به ، يرى أن شكر الله أقصى ما يمكن أن يقدمه . . وفى الحديث ما يفيد أن العبد الذى يشكر نعمة الله عليه يستوجب المزيد منها . . وفى القرآن الكريم « لئن شكرتم لأزيدنكم » . . وإذا كان بعض الناس تزهيه النعمة فيطغى ، وتنسيه الدنيا فيغفل عن ذكر الله ، أو تصرفه الحياة فيعرض عن ربه . . والمرء إنما يستخدمه الشيطان لشهواته ، ويذله لأغراضه، ويمتطيه ليصل به إلى مايوسوس له من أجله ... فإن المؤمن الذى تصفو روحه، وتسمو أهدافه ، وتترفع مآربه، يسخر من كل هذه الخواطر، ويحتقر الدنيا حينما يحس أنها تريده على هذا الأسلوب . . والأنبياء على الأخص لاتتدلى شهواتهم إلى هذا الحد، ولا تسف نواياهم إلى هذه المرتبة.. ولذلك فقد رأينا « يوسف » ولاهم له فى تلك الآونة إلا أن يتجه إلى ربه ذاكرا له ما أسداه إليه ، وما أسبغه عليه ، وما خصه به ، وجعله له من دون الناس « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولى فى الدنيـــا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » .. وماذا عساه أن يطلبه من ربه ويرجوه من إلهه ، فوق الوفاة على الدين الخالص، والشريعة المطهرة ، والصراط المستقيم، والنهج الواضح ، والسنن السوى، واللحاق بالصالحين من عباده الذين أنعم عليهم بالقرب منه ، والمشاهدة له ، والدخول فى الجنة « يوم لايخزى الله النبى والذين آمنوا معه » وقد بشم بالدنيا فلم يبق إلا الآخرة . وللآخرة خير لك من الأولى . تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض ولا فساداً .. ثم هو لم تكن دنياه دنيا الجاهلين الذين يعيشون فيها عيشة الحيوان الأبكم، تملكهم ولا يملكونها ، وتصرفهم كما يصرف اللاعب أحجار الشطرنج . ولكنه أوتى من أنواع العلم وصنوف الإدراك، وألوان المعرفة، مايجعل لدنياه من الامتياز والفضل مالا يمكن أن يكون لدنيا غيره من الخلق .

والذى يتتبع يوسف فى الأطوار المختلفة التى مرت به ، والأحداث المتكررة التى صادفته يرى أنه كانت تغلب عليه صناعة الوعظ والدعوة إلى الله .. فهو فى السجن لا ينسى أن يقول « أأرباب متفرقون خيرا أم الله الواحد القهار ، وما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » وحين كشف لإخوته القناع ليعرفوه قال قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين» وأخيرا يبتهل إلى الله هذا الابتهال ، ويرجوه هذا الرجاء . .

وبعد فإن لكل قصة بطلين تقوم عليهما ، ويدور الحديث فيها عنهما ، وهذه القصة برز الكلام فيها عند حادثتين، إلقاء يوسف فى الجب وقد تتبعت السورة أخباره حتى انتهت برفع أبويه على العرش . . والحادثة الأخرى مراودة « التى هو فى بيتها عن نفسه » وربما لذ لبعض المتحذلقين أن يقولوا إن القرآن قد اقتضبها اقتضابا ولم يزد على قولها للنسوة « فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين » وقولها فى هى ومن كان معها من أترابها فيما بعد لما أراد الملك أن يطمئن على نزاهته رجاء أن يستخلصه لنفسه « ما علمنا عليه من سوء » ثم لم يتعرض وراء ذلك لموتها وحياتها ، وكيف آل أمرها فى النهاية المحتومة والمصير المحقق . . ولهذا يختلقون الأخبار على « زليخا » زاعمين أن الملك حينما طلب استخلاصه لنفسه، وأشار هو عليه أن يجعله على خزائن الأرض، وتبين له من ذكائه النادر وعلمه الواسع ، وخبرته الضافيه ، وأدبه الجم . . ورأى أن عرضه الطاهر ، وخلقه المحمود ، لم تؤثر فيهما تلك الإشاعات المغرضه ، وقالات السوء المستفيضة . . وقال له « إنك اليوم لدينا مكين أمين » ود لو يبالغ فى إعزازه وتكريمه وكان العزيز قد أدركته المنية ،فأحب

أن يعوض على يوسف مافاته من «زليخا» يوم أن قال لها معاذا الله فزوجه منها حلالا بعد أن عف عنها حراما .. وهو كلام لم نجدله مستندا سوى بعض كتب المفسرين الذين ينقلون الأخبار من غير تحر فى الرواية ، ولا دقة فى النقل ويخيل لنا أنهم أرادوا بهذا حبك القصة فقط . . ولا يضر يوسف أنه لم يتزوجها ولا سيما وهو لم يكن المغرم بها ، المترامى على أعتابها ، حتى يسره أن يصل إليها ، ويقضى وطره منها . . والمدة التى مضت بعد الحادثة واستخلاص الملك ليوسف، وجعله إياه على خزائن الأرض كفيلة أن تجعلها لم يعد فيها نظرة لمستمتع، ولا مطمع لعاشق، لأن السن تقدمت بها ، والأيام أساءت إليها . . ولهذا نستبعد حصول الزواج بينهما .

والله نسأل أن نكون بهذا المرور العابر على تلك القصة القيمة عن حياة نبى من الأنبياء وصفه الله بكونه من أولى العزم ، أرضينا التاريخ والأدب والدين ، وقدمنا للقارىء الكريم يدا يذكرها فيشكرها إنه تعالى سميع مجيب ؟

ابراهيم على أبو الخشب

الفهرس


ظهرت
الطبعة
السادسة
من :
المصحف المفسر
للاستاذ العالم
محمد فريد وجدى
مؤلف دائرة المعارف
أحدث وأدق تفسير للقرآن الكريم
• ٨١٦ صفحة من القطع الكبير
• ورق ممتاز
• طباعة فاخرة
الثمن ١٠٠ مجلد بالقماش
و ١٢٠ قرشا بكعب جلد والبريد ٨٣ مليما
يطلب من الناشر: مكتبة القاهرة
لصاحبها على يوسف سليمان
بشارع الصنادقية ميدان الأزهر - بمصر